Ministry of Higher Education
& Scientific Research
Waist UNIVERSITY
Deanship of College of Arts

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
رئاسة جامعة واسط
عمادة كلية الآداب
مجلة لارك للفلسفة
واللسانيات والعلوم الاجتماعية

(النزاهة آية العفة)الإمام علي (عليه السلام)
(معاً لمساندة قواتنا المسلحة الباسلة لدحر الارهاب)

العدد: ١٧٢
التاريخ: ٢٠١٧/٤/١٩

الى/ا.د. شيماء خيري فاهم المحترمة / كلية الاداب / جامعة القادسية

الى / م.م. نصير جابر الفتلاوي المحترم / كلية الاداب / جامعة القادسية

قبول نشر بحث

نهديكم أطيب التحيات

يسرنا اعلامكم ان هيأة تحرير المجلة تدارست نتائج التقويم العلمي لبحثكم المعنون (**فاعلية الأجناس السردية في الرحلة الادبية الحديثة**)، وقررت في ضوء ذلك قبول نشره في الاعداد القادمة.

متمنين لكم التوفيق..... مع فائق الاحترام

الأستاذ المساعد الدكتور
محمد حسين علي السويطي
رئيس هيأة التحرير
٢٠١٧/ /١٩

نسخة منه الى
- سكرتارية المجلة/ الصادر

لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية هاتف نقال0781138 07811386662 E.Mail :nasir- wa @yahoo.

فاعلية الأجناس السردية في الرحلة الأدبية الحديثة

أ.د. شيماء خيري فاهم
م.م. نصير جابر الفتلاوي
جامعة القادسية/ كلية الآداب
قسم اللغة العربية

١٤٣٨ هـ
٢٠١٧ م

فاعلية الأجناس السردية في الرحلة الأدبية الحديثة

الملخص :

يسعى هذا البحث إلى تأشير ظاهرة بنائية يرى إنّها موجودة في الرحلة الأدبية الحديثة, هي فاعلية الأجناس السردية في الرحلة الأدبية الحديثة محدداً ثلاثة أجناس , هي(السيرة الذاتية , والحكاية , والمقالة الأدبية) , حيث تعمل هذه الأجناس داخل نسيج الرحلة بفعالية سردية , تحسب للرحلة كونها فنّاً يتّسع لصهر الأجناس السردية كلّها في داخلها من دون أن يفقد هويته السردية المائزة . وقد كانت النماذج المستعملة في البحث من أجيال مختلفة في الرحلة الأدبية الحديثة .

توطئة :

من الظواهر التي تُرافق الرحلة الأدبية بوصفها جنساً أدبياً هجيناً –بالدلالة الايجابية لمعنى الهجنة– هي قدرتها على احتواءِ أجناس سردية مجاورة لها من دون أن تفقد هويتها المائزة كرحلة أدبية, فمما لا شك فيه إنّ الأجناس السردية تتزاور فيما بينها لأنّها نتاج عقل ووجدان واحد, خضعت لبيئة ثقافية واحدة تناوشتها المؤثرات الفاعلة ذاتها, وقد أنتبه منظروا الأدب مبكراً لذلك ولعلّ تقسيم(أرسطو) للأدب على إنّه ثلاثة أنواع : غنائي ودرامي وملحمي[١], يشير إلى قدم هذا التداخل وصعوبة فضّ اشتباكه, فالأجناس تتداخل فيما بينها وتذوب في كثير من الأحيان الحدود الفاصلة بينها.

وفيما يخص الرحلة وجد الباحث إنّ ثمة نسخاً لهيكل الرحلة, قد استلهمته بنىً سردية مجاورة أفادت منه, منها السيرة الذاتية والمقالة الأدبية والحكاية. وإنْ سلّمنا بأثر الغرب كجزءٍ من قوة الثقافة المهيمنة على الثقافة المستعمرة إلّا إنّ إنكار الأثر العربي التراثي إجحاف وبُعد عن الموضوعية وقطع لسلسلة معرفية مُتشابكة تمدُّ أواصرها في تراثٍ غني, وزاخر, بكلِّ مقومات البقاء والتطور والتأقلم الثقافي؛ فرحلات مثل(رحلة السيرافي) التي هي رحلة للصين والهند تعود إلى عام ٢٥٧هـ, ورحلة ابن جبير (ت٦١٤هـ) وابن بطوطة(ت٧٧٩هـ) وابن شاهين(ت٨٧٣هـ) كانت هي النموذج المحتذى والمتبع عند كلّ طارق جديد لباب هذا الفن, بل إنّ صدى هذه الرحلات أثرى المخيلة بما لا يقبل الشك, وفتق الأذهان نحو فنون سردية أخذت من الرحلة بوصفها الفن الأكثر إحتواءً لكلِّ الفنون, فهي بحق فنٌّ ينفلت من التصنيف في كثير من الأحيان بوصفها فناً هجيناً تتفاعل به الأنظمة اللغوية والأنماط الخطابية[٢].

وهذا الانفتاح جعل الرحالة المعاصر وهو يجوب الآفاق مستكشفاً ومتعلماً يجوب أيضاً آفاق البنى السردية ليختار منها ما يؤسس عليه رحلته, وفي الآتي سنحاول إظهار عملية النسخ لبناء بعض الرحلات الأدبية لبنى سردية مجاورة مع التأكيد التام على إنّ الرحلة هي الأصل, ولكن لأنّ هذه الأنواع قد تسيّدت المجال السردي الرّحلي .

١ـ الرحلة الأدبية والسيرة الذاتية :

تلتقي الرحلة مع السيرة الذاتية في بعض المحاور, وتفترق معها في محاور أخرى مفصلية, فبينما السيرة تُعنى بالأنا بوصفها مركز الأحداث, يكون الآخر موضوع الرحلة الأدبية ومحطّ اهتمامها, والسيرة غير معنية بتقديم الأحداث على وفق تسلسل زمني تقليدي فالكاتب حر في اختيار التقنية التي تناسبه لعرض سيرته, بينما الرحلة تلتزم الوضوح والتناغم السردي الميّال إلى عرض الأحداث حسب تسلسلها الزماني والمكاني من دون الاشتباك والتداخل الفني والموضوعي بينما تخضع السيرة للحذف والتبديل والاختيار[٣].

ويشترط في السيرة الذاتية " أن يصرح الكاتب بأسلوب مباشر أو غير مباشر أنّ ما يكتبه هو سيرة ذاتية"[٤], والحقيقة إنّ الكاتب لحظة الشروع بالتدوين يحدّد سلفاً إنّ ما سيكتبه رحلةً أم سيرة ذاتية ولكنه لا يمكن أن يفصل أحياناً (سيرته) في (المكان) عن تفاصيل الرحلة لذا تظهر وتلتمع ملامح السيرة في تفاصيل الرحلة وبالعكس. ويصل أحياناً التداخل إلى الحدِّ الذي لا يبقى أمام المتلقي إلّا ضابط واحد وهو إشارة الكاتب في العنوان إنّنا أمام رحلة أم سيرة . ومن أمثلة هذه الكتب التي تثير هذه الإشكالية كتاب((زهرة العمر)) لتوفيق الحكيم الذي يصنفهُ بعضهم على إنّه رواية سيرية[٥], وقد تركها الحكيم دون إشارة مكتفياً بمقدمة كتبها يقول فيها, :"**هذه رسائل حقيقية كُتبت بالفرنسية في ذلك العهد الذي يسمونهُ (زهرة العمر) وهي موجّهة إلى مسيو(أندريه) الذي جاء وصفه في كتابي(عصفور من الشرق)**"[٦].

ومن تفحص الكتاب نجد إنّه مجموعة من الرسائل مُقسّمة على أجزاءٍ تضمن الجزء الأول(١٤) رسالة بعثها(الحكيم) إلى (أندريه) بعد مغادرته باريس للعمل في مصانع جنوب فرنسا وتضمن الجزء الثاني(٢٥) رسالة بعثها(توفيق الحكيم) من مصر بعد عودته لها وفي الجزء الثالث (٧) رسائل بينما نجد رسالة واحدة في الجزء الرابع[٧]. ويمكننا أن نقول إنّ الجزء الأول منها رحلة حقيقية حيث يصف علاقته بالمكان(باريس) لاسيما أماكنها وحياتها الثقافية وعشقه لمتحف (اللوفر) وكيف كان يزوره كلّ يوم أحد لأنّه اليوم المخصص للدخول بالمجان[٨].

ومثل هذا الخلط في السيرة والرحلة نجدهُ في أعمال أخرى ولكن ما يهمنا في هذا المبحث هو النسخ الكامل لبنية السيرة الذاتية ونقلهُ إلى الرحلة ؛ ففي رحلة(ذكريات باريس) للرحالة(زكي مبارك) لا نجد ما يفرقها عن السيرة الذاتية غير تصنيفها في تراث الكاتب على إنّها رحلة وليست سيرة ذاتية, ففي كلّ فقراتها نجد العناية بالذات وما حولها ودقّة في توصيف المكان ودقائقه, :"**بعد شهور طوال أسهرتُ فيها ليلي, وأسقيتُ فيها نهاري, صحت مني العزيمة على العودة إلى باريس, وكانت نشوة فرح تشبه نشوات الطفل حيث يحدثهُ أهله عن سفر سعيد**"[٩].

وفي كلِّ فقراتها مثل :

الأدب و الحياة

حياة العمال في باريس

مرسليا

الشيخ عبد الباقي سرور...[١٠]

نجد سيرة للناس والأمكنة وتوثيقاً لحوادث مع حديث عن الأنا التي ترصد كلّ ذلك ولكنه–أي الرحالة– يعود ليتذكر إنّه في رحلة وليس في(سيرة) ويذكر مايراه :" **وأعجب ما يلفت النظر في شباب الحي اللاتيني أنّهم لا يلتفتون بعضهم حول بعض إلّا قبيل الامتحان. وهم بذلك يتعاونون على قتل الوقت وتزجية أيام الأنتظار**"[١١]. ومن قراءة الرحلة كاملة نجد إنّها سيرة لم تكتمل أو جزء من سيرة لا تختلف عنها إلّا بالتصنيف التأريخي الذي لا يعني أحياناً شيئاً أمام التلقي الدقيق للنص.

و يروي لنا (خير الدين الزركلي) في رحلته(ما رأيت وما سمعت من دمشق إلى مكة) سيرته الذاتية في لحظة تأريخية عاشها بتناقضاتها كلّها, لذا أضاف السنة التي عاشها(١٩٢٩) إلى عنوان الرحلة وهي مذكرات وسيرة ذاتية خالصة حتى إنّ دار(الهيئة المصرية العامة للكتاب) وضعت عنواناً في الصفحة الأولى من غلاف الرحلة إنّها سيرة ذاتية[١٢]. ومن قراءة هذه الرحلة أو السيرة نجد إنّ (خير الدين الزركلي) أستعمل فيها أسلوب السيرة التقليدي القائم على التقطيع الزماني للأحداث ونوردها حسب تسلسلها, :

" **أصبحت يوم ٢٦ يوليو(تموز) ١٩٢٠ متهيئاً للسفر, أخشى أنْ تقع عليّ عين واشٍ فيصدني عن سبيلي, فبعثت بحقيبتي إلى القطار**"[١٣].

" **في حيفا ... رافقني في حيفا صديق حميم! مغرم بمحادثتي! مغري بملازمتي! مولع بماشاتي زعم أنّ صداقتي معه غير حديثة العهد بل ترجع إلى تأريخ طويل**"[١٤].

" **(دمشق في ٢٧ يوليو ١٩٢٠) من الكولونيل تولا كان تولا مرافقاً (ياوراً) للملك فيصل, رئيس البعثة الفرنسوية إلى صاحب السمو الملكي بدمشق**"[١٥].

ويورد ترجمة لما وجده في قصر الملك فيصل[١٦]. وتستمر الرحلة(السيرة) على هذا المنوال من البناء السردي البسيط القائم على الحكي بضمير الأنا مع وصفٍ للأمكنة التي تمرّ عليها, وعرض لبعض الحوادث التأريخية التي يرى فيها حاجة لذلك[١٧]. والرحلة وإنْ أرّخت لسنةٍ واحدة هي ١٩٢٩م إلّا إنّها كانت رحلة في تأريخ المدن التي مرّ بها الأديب والرحالة (خير الدين الزركلي), وهذا الاتساع الزماني والمكاني أعطى مشروعية للسرد المتشعب ومن ثمَّ ظهرت الأحداث مسوّغة ومقبولة فنياً وإنْ قاربت السيرة إلّا إنّها عمّقت ملامح الفن الرّحلي بوصفه مسوّغاً لكلّ جنس أدبي.

ونجد في يوميات الدكتورة رضوى عاشور المعنونة (أيام طالبة مصرية في أمريكا) سيرة ذاتية متكاملة لحياتها في أمريكا, ولا يمكن أنْ نفصل مقومات هذه الرحلة عن السيرة إلّا من خلال تصنيف المؤلف ذاته, فلو كانت قد أصدرتها كسيرة ذاتية لا نجد فرقاً بها عن أيِّ سيرة ذاتية أخرى, ولأنّنا هنا إزاء ظاهرة نذكر ما جاء

:"غادرتُ القاهرة فجر ٣٠ أغسطس ١٩٧٣, قبّلت مودعيّ ودخلتُ إلى المنطقة الجمركية حاملة حقيبة زرقاء كبيرة بها ملابسي وبعض الكتب, وحقيبة يد صغيرة أودعتها جواز سفري المصريّ الأخضر وبطاقة الطائرة ومحفظة جلدية بها نقود وبضع صور عائلة "[١٨].

ومثلها رحلة الكاتب محمود السعدني(السعلوكي في بلاد الافريكي) حيث تتجسد ملامح السيرة الذاتية في الرحلة وتتداخل معها, وحالها حال رحلة رضوى عاشور لا يمكن أنْ تُجنس إلّا من مؤلفها فهو صاحب سلطة التصنيف, على الرغم من أنّ ذلك من مهمة النقد كما نظن؛ لأنّ الكاتب قد لا يحدّد الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه كتابه, ففي رحلة السعدني سيرة ذاتية لحياته في أمكنة خبرها وعاشها[١٩]. ولعلّ قولنا إنّ كلَّ رحلة سيرة ذاتية في جانب من جوانبها يطابق الحقيقة[٢٠].

٢ـ الحكاية :

ينتظر من الرحالة أنْ يكون حكّاءً, فهو جواب آفاق, وناقل مؤتمن, رائد لا يكذّب أهله؛ لأنّ الرحلة سرد مُتصل فلا غرابة أنْ تكون الحكاية فاعلة فيها, ويكون الرحالة راوٍ نموذجي لأنّه ذلك "الشخص الذي يروي الحكاية أو يخبر عنها, سواء أ كانت حقيقة أو مُتخيلة"[٢١]. والحكايات في الرحلة تخترق التأريخ والحاضر لتكون منافذ فنية يلجأ إليها الرحالة ليربط أجزاء الرحلة كلّها مع بعض, فالشيخ الطنطاوي يجد في الحكاية فرصة سانحة لإعادة صياغة أخبارٍ قرأها أو تتبعها من أفواه الروسيين, قد يشكّل عرضها بصيغتها الرسمية مللاً للقارئ فتظهر كحكاية :" **وكانت تلك الأراضي غابات ملفتة, وغيطان متسعة تسمى الصحارى, لكن هذا كان من الزمان القديم, وكان هؤلاء الناس مساكين لأنّهم لا يعرفون الله, ويعبدون المخلوقات: الشمس والقمر والأصنام يعني لصور المصنوعة, ولهذا يسمون بالوثنين, ولا يعرفون القراءة ولا الكتابة, ولا يبنون المدن الظريفة**"[٢٢]. فالحديث عن تأريخ الروس بدا أشبه بالحكاية البسيطة التي أراد منها الرحالة أنْ يخبرنا بالمعلومات بأيسر طريقة, فهو يقصّ لنا حكايته هذه تحت باب(منشأة الروس)[٢٣], وتبدو الحكاية فاعلة أكثر عندما تجده يقدم لنا المعلومات التي يراها جديرة بالنقل على شكل حكايات,

:" ففي مساء خامس أيار أرسلت فلوكة من دننما الويد في النيفا للتفتيش عن مستعملين والعسكر والنواتية الذين كانوا في الفلوكة كانوا بعيدين بمراحل أن يظن الروس توجد هذه النواحي"[٢٤].

والحقيقة إنّ الحكاية فاعلة في جوانب الرحلة لأنّها منسابة في مفاصل السرد الذي يبدو حكائياً مهما كان مضمونه[٢٥].

ويجد(أحمد فارس الشدياق) في الحكاية مسوغاً لنقل تفاصيل دقيقة عن (مالطة) التي أراد شرح أحوالها, **:"ومما يحمدُ في مالطة عدم وجود العقارب والحيات وسائر الهوام المضرة, وإنْ وجدت فلا سمَّ لها, وأهل مالطة يزعمون أنْ ذلك كرامة ماربولس حين ألقى الثعبان من يده في النار, وأخبرني ثقة بأنّ الحيات في جزيرة كريد أيضاً لا سُمّ لها, وأهل ايطاليا يقولون إنّ ماربولس أزال السم من أفواه الحيات فانتقل إلى أفواه**

مالطة, وزعم بعض من الإنكليز أن ماربولس لم يمر بمالطة و إنّما كان مروره بمليطيه"[٢٦]. وتبدو أجواء الرحلة مناسبة لبث الحكايات الغرائبية إذ يتنحى الرحالة عن الحكي ويتركه لمزاعم الآخرين وروايتهم ليكون بريئاً مما يروى, لكسر رتابة السرد الواقعي وإكساب الرحلة بعداً وتخيلاً مشوقاً, فالفضاء الرحلي يتلّون على وفق ما يرتئيه الرحالة أحياناً, وأحياناً أخرى يبدو متحركاً مُتسعاً لكلِّ ما يرتئيه المتلقي حيث سيجد في تتبع الحكايات مسوغاً مقنعاً لمتابعة الرحلة, لذا فطن(صادق باشا المؤيد العظم) في رحلته إلى الحبشة, إلى السرد الغرائبي فجاء أسلوبه حكائياً :" **بينما كنت جالساً على ظهر البارجة أكتب هذه السطور سمعتُ على وجه الماء أصوات طيور فإلتفت فرأيت طيوراً مرت على وجه الماء ولم تبعد قليلاً حتى توارت فيه, وحينئذ إلتفت إلى أحد ضباط البارجة وكان ينظر إليها مثلي فسألتهُ عن ذلك فأجاب: إنّ هذا سمك طيار يوجد في المحيط الهندي بكثرة, ولم يُتمْ الضابط كلامه حتى خرج سرب من تلك الأسماك من الماء وأخذ في الطيران على وجه الماء بسرعة السهم, وبعد أنْ قطع خمسين متراً غاص في الماء**"[٢٧].

والحكاية القصيرة هنا, على بساطتها أدّت دوراً في ربط القارئ مع مجمل الرحلة بوصفها مدخلاً إلى حكايات أخرى, :" **في بلاد النجاشي وظيفة على غاية من الأهمية يطلق عليها اسم (ليقاما قواس), ويجب على الشخص المرشّح لإحراز هذه الوظيفة أنْ يكون مشابهاً للإمبراطور من حيث البنية والشكل تمام الشبه ولصاحب هذا المنصب أن يرتدي بمثل ما يرتدي الامبراطور ويعلق أوسمته, وبالجملة فإنّ الشرط الأعظم أن لا يكون فرق بينه وبين الامبراطور, وفي بعض الأحيان يقسم المنصب بين اثنين شبيهان النجاشي و(ليقاما قواس) هذا يقف دائماً وقت الحروب والأسفار قرب الإمبراطور وتحت شمسيته ولا يقدر أحد حتى ولا الجنود أنْ يميزوا الإمبراطور الحقيقي من الإمبراطور الوهمي فيتمكن بذلك وقت الحروب أن يترك شبهه تحت خيمته وشمسيته في مركزه الرسمي ليذهب ويتجول أين شاء دون أنْ يصيبه أذى أو قل خطر ويكون في معزل من قنابل العدو ورصاصه, وليقاما قواس هذا يكون دائماً معرضاً للمهالك بدلاً من الإمبراطور ولذلك سمّيته بدافع البلاء** "[٢٨]. وتتشابك الحكايات المتلاحقة بعضها ببعض حتى لتبدو الرحلة كلّها حكاية واحدة طويلة[٢٩].

والرحلة ذات نسب منفتح–بحسب شعيب حليفي[٣٠]– يرتبط بعناصر أخرى كثيرة جعلها الدكتور شعيب في دائرة يتبأر النص الرّحلي داخلها[٣١], وهذا ما جعلها تتقبل البنى كلّها لتكون بحق إحدى الأشكال الكبرى الأم للأدب[٣٢], ومن هنا فإنّ فاعلية الحكاية فيها متفاوتة, فلكلّ رحلة هناك عنصر بنائي يكون أكثر فاعلية فيها.. ولعلّ ما وجدناه أنّ الرحلات التي كتبت في نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين كانت الأكثر إحتفاءً بالحكاية[٣٣].. ولكن هذا لا يعني إنّ الرحلات الأخرى خالية من الحكايات, وإنّما احتفاء الرّحالة بالحكاية هو ما جعل بعضهم يظن إنّ الرحلة في تجلياتها المختلفة ماهي إلّا حكاية تتلو حكاية فيجدون بالأسلوب الحكائي الوسيلة الأمثل لسرد الرحلة ؛ ولأنّها –أي الحكاية– سرد قصصي يروي تفصيلات حدث واقعي أو متخيل, وهو ينطبق عادة على القصص البسيطة ذات الحبكة المتراخية الترابط التي تروى دائماً بضمير(الأنا)[٣٤], لذا نجد الكثير من الرحلات تنحو نحو الحكي البسيط, :" **ولقد في الطريق كهفاً متواضعاً بعد أنْ مرت بنا السيارة على كهفٍ يبدو لناظره ڤيلّا لولا أنّ سقوفها أقباء وطلاؤها أبيض, الكهف المتواضع**

لأرملة عجوز, ودخلنا فإذا بقبو السقف يجعله رطباً لطيف الحرارة, والكهف به ثلاث حِجْرات نوم وحِجْرة بها أرائك وحجرة بها مخزون طعام وحنفيات وقاعات مربعة صغيرة ولكن الكهف كلّه نظيف نظافة مذهلة, وحاجته على رقة حالها قد ملأته بأشغال اليد وتحف الفخار والنحاس والإشغال اليدوية "[٣٥].

ولعلّ من أهم التصورات عن الحكاية في الرحلة هو ما نجدهُ في عنونة بعض الرحلات بأنّها(حكايات) نحو, ((حكايات مسافر المدينة)), و((حكايات أوربية)) , وظنّ الرحالة إنّ ما سيكتبه حكايات, دليلٌ على فاعلية الحكاية داخل ذهن الرحالة لحظة الشروع بالكتابة, فيكون المبنى السردي المتخيل حكاية فتأتي الرحلة حكاية[٣٦]. ومن أهمِّ ما يمكن ملاحظته في تغلغل الحكاية داخل النسيج السردي للرحلة , إنّها تؤمّن للرحالة سلاسة مُتناهية للإنتقال من نسق سردي إلى آخر من دون أنْ يجد القارئ فرقاً, لأنّ الحكاية أكثر أشكال السرد مقدرة على إدخال القارئ إلى فضاء النص, تمنحه الألفة ولا تشعره بسلطتها كما هي الأشكال الأخرى التي تبدو متعالية, وقد تأتي الحكاية كاشفة للتفاصيل تغني الرحلة من خلال الرجوع إلى الحكايات المتعلقة بالمكان المُرتحل إليه,:" **وفي حكاية أخرى أنّها تفجّرت تحت أقدام فرسه عقبة بن نافع, كانت الفرسة تنبش بحافرها وهي عطشى فتفجر الماء تحت أقدامها ومن هنا سميت((عين الفرس)) وهي حكاية مشكوك فيها, لأنّ العين بدأت في الغالب مع مولد الواحة ذاتها**"[٣٧].

وهي حكاية متقنة على الرغم من عدم واقعيتها على الأكثر, ولكن يبقى للمخيال الجمعي الخصب وهو يحاول أن يربط هذا المكان بقائدٍ كبير هو (عقبة بن نافع) , محاولة لا واعية للتشبث بالنسب أو الجذور القريبة الإسلامية, أو ربّما تكون واعية لكنها تشابكت مع المكان بقصدية لتصنع تأريخه الذي أراد له الرواة .

وحينما يجد الرحالة إنّه بحاجة إلى الحكاية يتقصدها, ربما على الرغم من عدم قناعته بها لكنه يجدها ضرورية, :" **وهناك حكاية ثالثة تروي أنّ قافلة من البدو الرّحّل تذكروا بعد أنْ أوغلوا في الصحراء أنّهم نسوا قطعة طعامهم في المكان الذي تغدوا فيه, وبينما هم يبحثون تفجرت العين فسمّوها عين غدامس أي حيث الغداء أمس غداً أمس, فأصبحت غدامس* وهي فبركة طريفة لإختلاف أصل عربي لأسم غير عربي**"[٣٨].

وهكذا فإنّ لكلِّ حكاية هدف مما يجعلها فاعلة دائماً داخل النسيج الرحلي, فالحكاية نصٌّ مقارب ومجاور جداً للرحلة .

٣ـ الرحلة الأدبية والمقالة :

لا يختلف أثنان حول أهمية الصحافة وعلاقتها المباشرة مع الأدب بفنونه كلّها, ولقد تبلورت فيها فنون أنتجتها وصارت لصيقة بها مثل المقال الأدبي والتحقيق واللقاءات وغيرها من أبواب الصحف الثابتة. ومن تتبعي للرحلات الأدبية وجدت فيها نسخاً للمقال استثمره بعض الرحالة بصورة متقنة منجزين رحلات هي أشبه بالتحقيق الصحفي الذي يعرّف بأنّه " تغطية تحريرية مصوّرة تضيف مزيداً إلى خبر جديد أو تتناول موضوعاً

قديماً أو مشكلة مهمة وتكون أكثر من مجرد قصة أو تقرير عنه, مقدمة لظواهره, رابطة بين أسبابه القريبة والبعيدة ونتائجه الحالية والمتوقعة "[٣٩].

يصوغ الصحفي المصري(أنيس منصور) رحلته الشهيرة**(حول العالم في ٢٠٠ يوم) بالاعتماد على الأسلوب الصحفي في سرد تفاصيل رحلته الطويلة مستعيناً بالصور التوضيحية[٤٠], والعنوانات الفرعية ذات الطبيعة الصحفية :

صاحب القداسة رفض[٤١]

حفاة تقدّميون جداً[٤٢]

لؤلؤة البحار[٤٣]

سنغافورة ... أرخص بلد في الدنيا[٤٤]

واستغلاله لهذا الأمر جعل الرحلة أيسر لكلِّ قارئ , مشوّقة فهي لا تبتعد عن ما ألفه من أخبار يومية في الصحافة المقروءة ولكن بلغةٍ مركزّة, حاولت ضبط المسافة ما بين اللغة الجزلة واللغة السهلة الواضحة, :" **تسمع وأنت جالس في الفندق طبولاً ودقاً غريباً طول النهار.. وتنظر من النافذة فتجد رجلاً يدفع أمامه عربة.. أو رجلاً يركب دراجة.. هذه هي المناداة عندهم.. فهم لا ينادون على السلع وإنّما يدقون الأجراس والطبول.. وكلّ سلعة لها جرس خاص.. وأحياناً تجد البائع وبعده بخمسين متراً ترى طفلاً يضرب بقطعتين من الخشب الواحدة بالأخرى**"[٤٥].

إنّ ملامح التحقيق الصحفي وإنْ ظهرت هنا إلّا إنّها جُيّرت إلى ملامحِ رحلة قادرة على احتقاب هذه التفاصيل كلّها الفنية والموضوعية وصوغها من جديد في إطار أدب قادر على تطويع كلِّ فن .

ومثله(محمد ثابت) في(رحلاتي في مشارق الأرض ومغاربها) إذ يوفر لهُ التحقيق الصحفي ولغته الواضحة الوصفية ذريعة سردية للإسترسال في رحلته التي جعلها مقاطع معنونة بإشارات مكانية :

روائع الطبيعة في أوربا الشمالية

عبر أوربا من الشرق إلى الغرب

حول شواطئ البحر الأبيض

في منزل الوحي

في بلاد الشيعة

بين هضبتي الأناضول وإيران

في مجاهل أفريقيا

النيل من منبعه إلى مصبه

بين سنغال ونيجريا وسلطنة كانو

في الشرق الأقصى ....[٤٦]

وللتوضيح وزيادة تكثيف الصورة القلمية في ذهن القارئ يستعين بالصورة الفوتوغرافية[٤٧], وإستغلال الصورة من مهمات الرحالة لأنّه في الأساس ناقل صور, ولكن ما أردنا أنْ نقوله إنّ الرحلة الأدبية من أكثر الفنون السردية هضماً لكلِّ فن آخر, لأنّ كلّ حقل سردي لو تجاوز على مساحة حقل سردي آخر لضاعت هويتهُ وتغير تجنيسه, وربما ارتبك بناؤه الفني وضاعت رؤاه عدا الرحلة الأدبية فهي تستوعب كلّ تجاوز مع الاحتفاظ بهويتها المتحركة, وإذا كنّا قد قارناها مع التحقيق, فقد أردنا أنْ نقول إنّ هذه الفنون القولية قد نسخت من الرحلة الأدبية بنائها وأخذت منها الكثير من الجزئيات والتفاصيل, وإنّ فاعلية الرحلة في الأجناس السردية ظاهرة وواضحة لكلِّ مُتمعن, في المصدر السردي الأول الذي نهلت منه هذه الأجناس قبل أنْ تكون أجناساً منفصلة .

والمتأمل في رحلة حميد المطبعي (رحلتي إلى شمال العراق) سيجدها عبارة عن مقالات طوال تناقش كل مقالة بكثير من التفصيل موضوعاً محدداً وطريقة نقاشه فيها – أي في رحلته – توضّح قربها من المقالة حيث يعتمد الوضوح وعرض المعلومات بصورة مبسطة بها الكثير من التشويق مع لحاظ أنّه يختار عنوانات داخلية جذّابة وذلك جزء من ستراتيجية المقالة [٤٨] .

وكذلك نجده يعرض موضوعه بكثير من البساطة محاولاً الإلمام بجوانبه كافة " وكانت تغلب على مجتمع تلعفر منذ القدم صفة المجتمع الزراعي وكانت تغلب أو تطبع هذا المجتمع أفكار القرية الزراعية وهي منظومة العلاقات الزراعية الأولى ،فالمنقبون الذين نقبوا في تل الرماح ومناطق يارم وتلول الثلاثات قدموا لنا معلومات أولية عن نشوء القرى الزراعية في عهود حسونة وحلف وعبيد " [٤٩] وحميد المطبعي يلجأ الى اللغة الواضحة جداً ويبتعد عن التعقيد : " في دهوك تتوزع ثقافة الجمهور الخاص ،الجمهور الأدبي والجمهور الفني وجمهور الرسم والموسيقى وجمهور الندوات والأسابيع الثقافية " [٥٠] .

ومثله محمد بن حامد الأحمري في رحلته (أيام بين شيكاغو وباريس) فالرحلة مقالات انطباعية عن مدينتي شيكاغو وباريس بعد (أحداث ١١أيلول)كما ينوّه الرحالة [٥١] .

وهو يقرّ إنها انطباعات [٥٢] عن هذه المدن أو الأمكنة بعد ذلك الحدث الكبير : " كان دخولي عن طريق مطار شيكاغو سهلا وميسرا أكثر مما توقعت بكثير، ولم ألاحظ تأخيرا لي ولا لغيري عند مكتب الدخول كما يتوقع المسافرون في العالم العربي " [٥٣] .

فلغته هي لغة المقالة التي توصف بأنها " لغة الحياة العامة ،مستساغة من الجميع " [٥٤] .

ومن خلال ما مرّ يمكن أن نقول الآتي :

١ـ إنّ الرحلة الأدبية بنماذجها المؤسسة الأولى كانت هي المصدر الرئيس الذي تفرّعت منه أجناس أدبية مجاورة مثل السيرة الذاتية والرواية –وإنْ تأخر ذلك الأثر– إلّا أنّ إنكاره بعيدٌ عن الموضوعية , فالرجوع إلى الغرب في أصل هذه الأجناس به من الإجحاف الكثير, لأنّ أثر الرحلة لا ينكر حتى وإنْ بدا متأخراً .

٢ـ إنّ رحلات كثيرة بدت في كثيرٍ من الأحيان وكأنّها سيرٌ ذاتية لفتراتٍ زمنية محدّدة في أمكنةٍ مختلفة, ولو رفع الرّحالة صفة الرحلة لبدتْ سيرة ذاتية خالصة في مغتربات أو فترات من حياتهم[٥٥].

٣ـ تنزع كثير من الرحلات إلى أسلوب التحقيق الصحفي, فلغتها الواضحة السهلة وميلها إلى عرض المعلومات بصورةٍ مبسطة وعدم سعيها إلى حشدٍ التفاصيل والشخصيات فيها, يجعلها أشبه بالتحقيق الصحفي[٥٦].

الهوامش :

(١) ينظر: فن الشعر : ٣–٥ .

(٢) ينظر: أدبية الرحلة : ٢٧ .

(٣) ينظر: أدب السيرة الذاتية : ١٩ .

(٤) السيرة الذاتية في الأدب العربي : ١٦ .

(٥) تنظر: أدبية السيرة الذاتية في العصر الحديث , بحث في آليات إشتغال النصوص ومرجعياتها الفاعلة , (أطروحة دكتوراه) , وكذلك رواية السيرة الذاتية في أدب توفيق الحكيم, دراسة نقدية تحليلية (رسالة ماجستير) .

(٦) زهرة العمر : ٩ .

(٧) ينظر: عرض مفصل لهذه الرسائل في : أدبية السيرة الذاتية في العصر الحديث : ٤٢–٤٧ .

(٨) ينظر: زهرة العمر : ٢٧ .

(٩) ذكريات باريس : ١٧ .

(١٠) م . ن : ٦ .

(١١) م . ن : ٧٧ .

(١٢) ينظر: ما رأيت وما سمعت من دمشق إلى مكة : ١ .

(١٣) م . ن : ٩ .

(١٤) م . ن : ١٣ .

(١٥) م . ن : ١٥ .

(١٦) م . ن : ١٤ .

(١٧) ينظر: على سبيل المثال لا الحصر : ما رأيت وما سمعت من دمشق إلى مكّة : ٥٢, ٥٣, ٥٧ .

(١٨) أيام طالبة مصرية في أمريكا : ١ .

(١٩) ينظر : السعلوكي في بلاد الافريكي : ٦٩ – ٧٣ , ١٢٧, ١٢٨ .

(٢٠) ينظر: على سبيل المثال لا الحصر :

-من امريكا إلى الشاطئ الآخر : ٣٤, ٣٥, ٣٦, ٣٧, ٥٩, ٦٠ .

-سائح في دنيا الله : ٧, ٨, ٩, ١٥, ١٦ .

-مدينة الغرباء مطالع نيويوركية : ٣١, ٣٢, ٣٣, ٣٤ .

(٢١) السردية العربية, بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي : ١١. وينظر كذلك: النقد الأدبي الحديث, محمد غنيمي هلال : ٥٠٤ .

(٢٢) تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا : ٩٩ .

(٢٣) ينظر: م . ن : ٩٩-١٠٢ .

(٢٤) م . ن : ١٢٨-١٢٩ .

(٢٥) ينظر : على سبيل المثال لا الحصر, م . ن : ١٣٠, ١٣١, ١٣٢, ١٣٣, ١٣٤, ١٣٥ , ١٣٦, ١٤١, ١٤٢, ١٤٣, ١٤٤, ١٤٥ .

(٢٦) الواسطة في أحوال مالطة : ٣٣ .

(٢٧) رحلة الحبشة : ٣٧ .

(٢٨) م . ن : ٢٠٩-٢١٠ .

(٢٩) ينظر: على سبيل المثال لا الحصر: م . ن : ٢١٠, ٢١١, ٢١٣, ٢٢٥, ٢٤١ .

(٣٠) ينظر: الرحلة في الأدب العربي : ٨١ .

(٣١) ينظر: م . ن : ٨٠ .

(٣٢) ينظر: الرحلة في الأدب العربي : ٨١ .

(٣٣) ينظر: على سبيل المثال لا الحصر:

-جولة في ربوع أفريقا : ٩, ١٠ .

-تذكار الصبا : ٨٧, ٨٨, ٩٢ .

-سياحة في الروسيا : ١١, ١٢, ١٧, ٢٣, ٢٤ .

(٣٤) ينظر: معجم المصطلحات الأدبية , إبراهيم فتحي : ١٤٠-١٤١ .

(٣٥) رحلة الشرق والغرب , سافرت في الإنسان والمكان والزمان : ٤٠ .

(٣٦) ينظر: حكايات من العالم . وكذلك : حكايات نسائية من أوربا .

(٣٧) مغامرة في الصحراء : ١٤ .

***غدامس** : واحة في ليبيا سكانها ٢٥ ألف , ويقال لها مدينة القوافل لمحطتها الرئيسة منذ الزمن البعيد . ينظر: ويكيبيديا, الموسوعة الحرة .

(٣٨) م . ن : ١٤ .

(٣٩) التحقيق الصحفي : ٢٤ .

****طُبعت** هذه الرحلة أكثر من (٢٥) مرة وكتب عنها الكثير وقدّم لإحدى طبعاتها د. طه حسين .

(٤٠) ينظر: على سبيل المثال لا الحصر: حول العالم في ٢٠٠ يوم : ٩٣, ١٠٢, ١٠٣, ١٠٥, ١١٩ .

(٤١) ينظر: حول العالم في ٢٠٠ يوم : ٦٢ .

(٤٢) ينظر: م . ن : ٩٤ .

(٤٣) ينظر: م . ن : ٣٦٥ .

(٤٤) ينظر: م . ن : ١٨٨-١٨٩ .

(٤٥) م . ن : ٢١٣ .

(٤٦) ينظر : رحلاتي في مشارق الأرض ومغاربها : المحتويات .

(٤٧) ينظر: على سبيل المثال لا الحصر: م . ن : ١٠, ١١, ١٢, ١٣, ٢٢,.

(٤٨) ينظر : رحلتي إلى شمال العراق : على سبيل المثال لا الحصر :٤٦,٤٥,٤٢,٤١,٣٩,٣٧,٣٣

(٤٩) رحلتي إلى شمال العراق :١٢٧

(٥٠) م . ن : ٢٤٧

(٥١) ينظر : أيام بين شيكاغو وباريس صفحة العنوان

(٥٢) ينظر : م . ن : ١٥

(٥٣) م . ن : ١٥

(٥٤) فن المقالة : ٤٤٥

(٥٥) ينظر : الرحلات :

-الرحلة الثامنة إلى القدس , ١٩٧٠م .

-رحلة إلى العراق , ١٩٧١م .

-أيام طالبة مصرية في امريكا , ١٩٨٣م .

-مدينة الغرباء , مطالع نيويوركية , ٢٠١٢م .

(٥٦) ينظر: الرحلات :

-مغامرة في الصحراء .

-حول العالم في ٢٠٠ يوم .

-الموكوس في بلاد الفلوس . -بلاد تشيل وبلاد تحط .

المصادر والمراجع :

أولاً : الكتب :

١-أدب السيرة الذاتية , د. عبد العزيز شرف , الشركة المصرية العالمية للنشر, مكتبة لبنان , ط١, ١٩٩٢م .
٢-أدبية الرحلة , عبد الرحيم مودن , دار الثقافة للنشر والتوزيع , الدار البيضاء , ط١, ١٩٩٦م.
٣- أيام بين شيكاغو وباريس , محمد بن حامد الأحمري , مكتبة العبيكان ,الرياض , ط١ , ٢٠٠٥م
٤-أيام طالبة مصرية في أمريكا , رضوى عاشور, ت: ميجان الرويلي , سعد البازي, المركز الثقافي العربي, بيروت , ٢٠٠٠م .
٥-بحر أزرق .. قمر أبيض , حسن البحار, الدار العربية للعلوم ناشرون , لبنان , ط١, ٢٠١٤م.
٦-بلاد تشيل و بلاد تحط , محمود السعدني , دار الهلال , مصر, ط٢, ١٩٩٣م .
٧-تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا , الشيخ الطنطاوي , قدم لها وحررها: محمد علي صالحية , مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر , بيروت , ودار البشير عمان , ١٩٩٢م .
٨-التحقيق الصحفي , محمود أدهم , دار الثقافة للطباعة والنشر, القاهرة , ط١ , ١٩٨١م .
٩-تذكار الصبا ذكرى ١٩مارس , محمد لطفي جمعة , مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة , مصر, ٢٠١٣م .
١٠- جولة في ربوع أفريقا بين مصر ورأس الرجاء الصالح , محمد ثابت , مؤسسة هنداوي ,مصر, ٢٠١٥م .
١٠-حكايات من العالم , أحمد زين , مطبعة أطلس , القاهرة , ١٩٧٥م .
١١-حكايات نسائية من أوربا , أماني فريد , مطبعة حليم , القاهرة , ١٩٨٠م .
١٢-حول العالم في ٢٠٠ يوم , أنيس منصور, دار الشروق , مصر, ط٢٢ , د. ت .
١٣-ذكريات باريس , زكي مبارك , مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة , مصر, ٢٠١٢م .
١٤-رحلاتي في مشارق الأرض ومغاربها , محمد ثابت , مؤسسة هنداوي للتعلم والثقافة والنشر, مصر, ٢٠١٤م .
١٥-رحلة إلى العراق , أحمد أمين , دار الكتاب العربي , بيروت , ١٩٧١م .
١٦-الرحلة الثامنة إلى القدس , جبرا إبراهيم جبرا , صيدا , ١٩٧٠م .
١٧-رحلة الحبشة من الأساتنة إلى أديس أبابا ١٨٩٦ , صادق باشا المؤيد العظم , حررها وقدم لها: نوري الجراح , المؤسسة العربية للدراسات والنشر, دار السويدي , الأمارات العربية المتحدة , ط١, ٢٠٠١م .
١٨-رحلة الشرق والغرب , سافرت في الإنسان والزمان والمكان , د. نعمات أحمد فؤاد , الهيئة المصرية العامة للكتاب , القاهرة , ط١, ١٩٨٦م .

١٩- الرحلة في الأدب العربي , التجنيس , آليات الكتابة , خطاب المتخيل , د. شعيب حليفي , دار رؤية للتوزيع والنشر, القاهرة , ط١, ٢٠٠٦ م .
٢٠- رحلتي إلى شمال العراق , حميد المطبعي , منشورات الأمانة العامة للثقافة والشباب في كردستان للحكم الذاتي , ط١, ١٩٨٦م
٢١-زهرة العمر, توفيق الحكيم , دار الشروق , مصر, ط٢ , ٢٠٠٨م .
٢٢-زهرة العمر, توفيق الحكيم , الهيئة المصرية العامة للكتاب , مصر, ١٩٩٨م .
٢٣-سائح في دنيا الله .. حول العالم في ٣٠ عاماً , عبد الوهاب مطاوع , مطبعة مدبولي الصغير, مصر, ١٩٩٧م .
٢٤-السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي , د. عبد الله إبراهيم, ط١, ١٩٩٢م .
٢٥-السعلوكي في بلاد الأفريكي , محمود السعدني , دار الهلال, مصر, ١٩٩٣م .
٢٦-سياحة في الروسيا , رشاد بك , مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة , مصر, ط١, ٢٠١٤م.
٢٧-السيرة الذاتية في النقد العربي الحديث والمعاصر, دراسة في نقد النقد , د. عبد الله توفيقي , عالم الكتب الحديثة , الأردن –الأربد , ط١, ٢٠١٢م .
٢٨-فن الشعر, أرسطو طاليس , ت : عبد الرحمن بدوي , دار الثقافة , بيروت , ٢٠٠١م .
٢٩-فن الشعر, أرسطو, ت : عبد الرحمن بدوي , دار النهضة – مصر, ١٩٥٣م .
٣٠-القلم وما أوتي في جيبوتي , محمد بن ناصر العبودي , مطابع النرجس , الرياض , ١٤٢٥هـ.
٣١-ما رأيت وما سمعت من دمشق إلى مكة , خير الدين الزركلي , الهيئة المصرية العامة للكتاب, مصر, ٢٠١٤م .
٣٢-مدينة الغرباء .. مطالع نيويوركية , جمال الغيطاني , دار نهضة مصر للنشر, ط٢, ٢٠١٢م.
٣٣-معجم المصطلحات الأدبية , إبراهيم فتحي , طبع التعاضدية العمالية للطباعة والنشر , تونس , ط١, ١٩٨٦م .
٣٤-معجم المصطلحات الأدبية , إبراهيم فتحي , المؤسسة العربية للناشرين المتحدين , تونس , د. ط, ١٩٨٦م .
٣٥-مغامرة في الصحراء , د. مصطفى محمود , مكتب المصري الحديث , ط٢, (د. ت) .
٣٦-من أمريكا إلى الشاطئ الآخر, د. مصطفى محمود , دار المعارف , مصر, د. ط , د. ت .
٣٧-الموكوس في بلاد الفلوس , محمود السعدني , مؤسسة أخبار اليوم , مصر, ١٩٩٧م .
٣٨-النقد الأدبي الحديث , محمد غنيمي هلال , نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع , القاهرة , ١٩٩٧م .

٣٩-الواسطة في معرفة أحوال مالطة , أحمد فارس الشدياق , مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة, القاهرة, ٢٠١٤م .

ثانياً : الرسائل الجامعية :

١-أدبية السيرة الذاتية في العصر الحديث .. بحث في آليات اشتغال النصوص ومرجعياتها الفاعلة , ناصر بركة (أطروحة دكتوراه), جامعة الحاج لخضر, الجزائر, ٢٠١٣م .

٢- رواية السيرة الذاتية في أدب توفيق الحكيم دراسة نقدية تحليلية , سامر صدقي محمد موسى (رسالة ماجستير), جامعة النجاح , فلسطين , ٢٠١٠م .

ثالثاً : المجلات والدوريات

١- فن المقالة , د. جمال الجاسم المحمود , مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية , مج ٢٤, ع ١, ٢٠٠٨ م

ثالثاً : المواقع الالكترونية :

١- ويكيبيديا الموسوعة الحرة .

Abstract

-Effectiveness of the narrative genres in the modern literary journey-

-The second research tries to study another constructional phenomenon. which is exist in the modern literature tour . this phenomenon is the activity of the narrative samples that consist of three samples, biography , tale , and literature essay . these samples work inside the tour with narrative activity for it's being an art contains all of these samples without losing the identity and the samples used in the research were from different generations in the modern literature tour.